للروائي الجواتيمالي
كارلوس واليه أوزنبيا
ترجمة
خيري حماد

وقف الرجل أمام السياج ، ورفع رأسه ، وجمع يده على شكل منظار وضعها أمام عينه اليمنى ، وأخذ يمعن النظر في الغرفة التي تطل نافذتها عليه .

كان الرجل أعشى البصر ، لا يكاد يرى . ولذا لجأ الى حاسة الشم القوية عنده ، يتلمس الرائحة من نيران الموقد الذي اعد للطهي ، فتصاعد اللهب منه، يضيء الى حد ما الغرفة المعتمة . التي ترامت له منها اشباح . لا يستطيع تمييزها . تذرعها جيئة وذهابا أمام وهج النيران المتقدة .

واطل برأسه ، وقد مد عنقه ، بحرص المجرم الخارج على القانون ، يصغي بأذنيه . بينما اتسعت فتحتا منخريه يعب فيهما الهواء عبا ، كالكلب الذي يتشمم الاثر .

وسمع صوت النسوة ، وهن يصفقن بايديهن ، اثناء اعدادهن الفطائر المحشوة وشم الرائحة الدافئة المنبعثة من هذه الفطائر . ومن صنوف الكعك الاخرى فاحس بالجوع القاتل . انه لم يتذوق الطعام منذ أمد طويل . وجوعه اشد من جوع الفقير المتسول ، اذ ان هذا كثيرا ما يعتمد على ما يسد به رمقه ، قبل أن يصاب بالاغماء ، وقبل ان يعض الجوع امعاءه كعضة الثعبان السموم .

لكن جوعه كان من نوع آخر ، انه جوع الآبق المطارد . الذي لا يستطيع الدنو من الناس لتسول قوته . واذا ما أسعفه الحظر وواتاه ببعض الطعام ، اقبل عليه كالذئب الجائع المفترس وقد وضع يده على خنجره ، وتمنطق ببندقيته .

وحزم خوان باراباس أمره هذه المرة ... ترى هل يخشى من الاعتقال ومن الزج به في غياهب السجن ؟.. لا . ان في السجن راحة له . وقد قلب هذا الموضوع في جميع نواحيه ، ودرسه بامعان وتبصر شديدين ، فقرر ان من الخير له ، ان يستسلم للشرط، بعد ان أعياه البحث عن الغذاء والمأوى . أما الآن فيكفيه ان يطلب لقمة من أهل هذه المزرعة يسد بها رمقه . اذ لا يعرفه فيها أحد .

وراح يدور حول السياج . جاسا طريقه بعصاه ، وراح يدلف الى الامام في حالة يرثى لها ، وهو يتحسس بقدميه طريقه ، مارا بدرب ممهد تحيط بها مساحات مزروعة بالخضار .

وجاءته فكرة مفاجئة ، ترى هل يطلب عملا من اهل المزرعة ؟ .

لا .. انها فكرة سخيفة .. وكيف يستطيع ان يعمل الآن ، وقد اقعده المرض ، وطغى في السن ، لاسيما وقد

صرم شبابه بل حياته كلها ، دون ان يمارس عملا ·

اذن ·· فالخير ان يطلب لقمة يسد بها جوعه ·

ودنا من المزرعة · وقد بانت عليه الذلة والمسكنة ، واخذ يقدم ساقا ويؤخر اخرى ، شأنه فى ذلك كالكلب الضال ، وراته امرأة ، كانت تغدو وتروح أمام نيران الموقد ·· فقالت ·· ماذا استطيع أن افعل لك يا سيدى ؟

ـ قطعة من الفطائر ·· جزاك الله ! ··

ودعته المرأة الى الدخول ، فدلف الى الغرفة ، وانتحى يقتعد مجلسا له على الواح الخشب ، وقد اسند ظهره الى الجدار المبنى من الطين الجاف · وتطلعت اليه النسوة لحظات ، وفى عيونهن تعبير يفيض بالشك وعدم الاطمئنان · بينما شرع كلب على مقربه ، ينبح نباحا شديدا فيه كل مظاهر الغضب ·

وجئن له بقطعة من اللحم المقدد الى جانب عدد من الفطائر · وأخذ خوان باراباس ، يلتهم ما أمامه ببطء ، وقد غمرته السعادة فى ذلك الجو الهانىء متحررا من الخوف الذى يقلق جميع الحيوانات وهى تقبل على طعامها ، وغلبه التعاس ، فاتكأ برأسه على الجدار · وراح ينشد الاغفاء ، لكن المرأة التى دعته للدخول ، سرعان ما ايقظته بسؤال وجهته اليه قائلة ·· ترى هل تقصد بعيدا ؟ ··

لقد جاء على قدميه من « سالا » بعد ان خرج من المستشفى الذى تولى علاجه وراح بعد ذلك يضرب فى الارض دون ان يكون له هدف معين · وعندما يكون الانسان بلا مأوى وبلا عائلة أو طعام وتكون الشيخوخة قد عاجلته ، فاصبح عاجزا عن العمل ، يغدو كل مكان على وجه الارض وطنا له ومأوى ·

وتطلعت اليه المرأة بنظرة حانية عكست ما ابدته نحوه من اهتمام وراحت تسائل نفسها ·· ترى ما خطب هذا الانسان ؟ وما هى جريرته ؟ انه يحس ببرد قارص يبدو فى عينيه وكأنه قد استقر فيهما · وقد اصيب بهذا البرد الذى تصحبه الحمى احيانا من الاراضى الواطئة ، عندما كان يعمل فى غاباتها قبل بضع سنوات ·

وسمع امرأة مكتنزة الشحم ، تبدو وكأنها كرة منتفخة ، وقد بلغت حدود الاربعين من عمرها تقول ·· ان جميع اهل المناطق الواطئة يصابون بالحمى التى لا ينجو منها انسان ·· ثم راحت تسأله ·· ما اسمك يا هذا ؟

وراح خوان باراباس ، يعترف باسمه الحقيقى هذه المرة خلافا لعادته ، وقال·· خوان فارجاس فى خدمتك يا سيدتى

وتمتمت المرأة المنتفخة بالاسم وتطلعت الى رفيقاتها تقول ·· الم يكن زوج جوزيفا يحمل اسم فارجاس ؟

وفوجىء الرجل القذر ، ذو الاسمال البالية ، عندما سمع اسم جوزيفا وفتح عينيه المتورمتين ، ولكنه ظل صامتا لايحير ببنت شفة · وبعد لحظة تردد قال ·· او هناك من تسمى بجوزيفا تعيش فى هذه الناحية ؟

ـ اجل ، انها المرأة التى تدير بيت السيد مع ابنتها · لقد كان لها رجل ويقال انه هجرها ··

ـ وهل السيد موجود ؟

ـ لا ، لقد ذهب الى مدينة جواتيمالا

.. وجوزيفا الآن في الزريبة . تعنى بأبقارها .

وراح خوان ينهض من مكانه مودعا، وهو يقول .. ليرعاكن الله ، ويجزيكن عني خير الجزاء .

واتجه الى الزريبة ، حيث رأى جوزيفا فعرفها لتوه ، انها العجوز الحادة المزاج التي تنهال بوابل سبابها على الاولاد الذين يحلبون الابقار .. ووراءها ابنتها ابنة خوان باراباس ، وقد شبت حتى غدت فتاة في عمر الورود .

ولم يحس خوان بأية عاطفة ، وهو يرى المرأة التي كانت في يوم مازوجته والتي غدت الآن ضخمة الجسم ، مترهلته تعوي بصوت كصوت الآمر ، وتتخذ هيئة الحاكم بأمره في المزرعة .

وتقدم منها ، ثم وقف أمامها وبادرها بقوله .. هل تعرفيننى ؟

ووقفت حيرى والدهشة تسيطر عليها ثم دنت منه ، حتى لمسته بيديها . وعرفته على الفور ، ولم تحاول اخفاء تقززها من رؤياه ، ثم قالت .. ومتى خرجت من السجن ياخوان فارجاس ؟

وسرعان مالانت نظرتها ، كما اعتادت في الايام السالفة ، أمام عيني المجرم المخيفتين ، وقالت بشيء من اللين .. وماذا تعمل هنا ؟

ورفع خوان يده الى فمه وفتحه . واشار لها بأنه كان يزدرد الطعام ، ثم امسك بابنته ، واخذ يداعبها بحنان ، والفتاة تحاول الخلاص منه ..

وقال خوان : أهي الوحيدة ؟

وفهمت جوزيفا ما يعنيه فقالت .. لا ، هناك ، ولد آخر ، من سواك .. ثم انفجرت في غضب ثائر ، واخذت تلوح بيديها في وجهه وهي تقول .. وماذا كنت تتوقع ، عليك اللعنة ! لقد تخليت عني قبل تسع سنوات ، وهجرتني .. أجل لقد تعادلنا .. وماذا كان بوسعك ان تنتظر ؟ .. .

وانفجرت تبكي بكاء مرا .. وبدا كل شيء طبيعيا لخوان . فما حدث قد حدث ثم اخذ زوجته بين ذراعيه .

واقام الرجل الكفيف البصر في المزرعة . وعين كواحد من موظفيها بتوصية من جوزيفا ، التي لم تحدد له اعماله أو واجباته ، كان رجلا على اهبة للقيام بكل ما يطلب اليه عمله وللتدخل في كل شيء ، فهو يتقن كل المهن . وسرعان ما اصلح كل باب في المزرعة .ووضع كل قفل في موضعه وسمر لكل جواد نعليه ، ورمم كل شيء خرب ، كما اخذ يعنى بالحديقة وما فيها من دواجن .

وراحت نساء المزرعة يداعبنه ويسمينه بالمرأة العجوز ، وهو يضحك منهن . انهن مسكينات ، لا يعرفن شيئا . انهن لايعرفن انه امتهن اللصوصية وهو في الرابعة عشرة ، ثم تحول الى قاتل ، والى رئيس عصابة من قطاع الطرق ، وبات في وسعه الآن ، وهو ينعم بهذه الحياة الوادعة الهانئة ان يبتسم ساخرا من ماضيه .

يالحماقة الانسان ، عندما يقترف الجرائر . هاهو خوان يضحك الآن من اعماق قلبه ، بعد ان نسي ماضيه واصبح آمنا في هذه المزرعة في مطاردة الشرط . والفضل في ذلك كله اليها أجل الى المرأة التي هجرها .

انها تقول له الآن .. اسمع يا خوان مهما كنت ، فقد طويت صفحة الماضي

ودفنته . ومن الخير ان تعمل الآن لابنتك وللطفل الذى يحبـــك ، رغم انه لايمت اليك بصلة . انك تكسب الآن رزقك بعرق جبينك ، وبشرف ، والاغنيـــاء وحدهم هم الذين يخشون عـلى اسمهم الطيب وشرفهم حتى ولو كانت خشيتهم هذه زائفة مصطنعة . وعندما يتيسر لك بعض المال . عليك ان تدخره ، لتعهد به الى محـــام يدافع عنك وينقذك من السجن . وعليك ان تبدل جميع طرائقك فى الحياة .

كان الصدق يطبع حديثها كله . انه غارق الآن الى أذنيه فى الشرف انه لم يعد يسلب شيئا من أى انسان . وقد بدأ حسن الطالع يبتسم له ، وللاشخاص الثلاثة الذين يحبهم ويحبونه .

وراحت جوزيفا ، تقيم له الدليل على واسع حكمتها ، عندما شرعت تلقى على مسامعه محاضرة ثانية بصوت يحمـــل الأمل والرجاء ، وتقول .. علينـــا ان ندخر بعض المال . ان الجميع يسرقون من السيد . ولن نسمح للآخرين بأن يأخذوا ما نستطيع نحن أن نأخذه . ان لنا حقا فيه أكثر منهم ، اذ اننا نحن الذين نقوم على خدمة المزرعة وحمايتها فأنت وحدك الذى يجب ان يغدو مراقب هذه المزرعة . ولذا علينا ان نتزوج فقد اخذ الناس يتهامسون عن علاقتنا

ورفض خوان الفكرة . انه لايستطيع الزواج ، وســـماع اجراس الكنائس ولكنه اذعن اخيرا لارادتها امام الحاحها . وتزوجا . واصبح خوان بعد الزواج مراقبا نموذجيا فى مزرعة نموذجية .

وتمكن على حساب السيد . من بناء عش صغير له ولاسرته . اثثه بأحسن الاثاث والفراش .

ونما الـــوفر . وتحسن العمل . وساد النظام فى المزرعة . وسر السيد سرورا منقطع النظير . من الطريقة التى رأى منها خوان يدير مزرعته ويصون مصالحه خير صيانة . واخـــذ يكيل له المديح ، امام كل من يراه من اصدقائه ومعارفه ، وينعته بالصـــدق والامانة والنزاهة ، ونظافة اليد .

وحقا فقد مكنته خبرته السابقة كلص وقاطع طريق ورئيس عصابة من ادارة العمل بحزم ، ومن سياسة مرؤوسيه ومنعهم من السرقة والغش والخديعة . وغضبوا فى بداية الأمر من معاملته لهم فحاولوا العصيان والثورة . ولـــكنهم سرعان ما تبينوا قوة شخصية خـــوان فارجاس ، اذ تمكن بضربة واحدة من يده ، من اطارة الفاس التى كان يحملها أكثر العمال فتنة ، وأحبهم للشـــغب والعصيان من يده ، وقذفها بعيـــدا . وهابه العمال ، بعد أن تبين لهم ، ان ليس بينهم من يستطيع مبارزة المراقب العجوز . او مقاومة يده القوية ، أو محاكاته فى اصابة الهدف باطلاق النار أو خذف الخنجر .

وسيطر عليهم الخوف منه · وسرعان ما انقلب الخوف الى ولاء وحب وعبادة للرجل · لقوته ورجولته · وتطورت العبادة الى وله شديد يحس به ابناء الريف عادة بغرائزهم لكل من يتولى قيادهم ·

واصبحوا جميعا ينادونه بالسنيور خوان ، ويظهرون له كل تحية واحترام وعلقت زوجته على هذا التطور بقولها : لو لم تكن جاهلا ، لغدوت جنرالا وقائدا عظيما ·

ورد عليها العجوز بقوله ··· أو زعيما أو رئيسا ·

وكانت ابنته روزاليندا ، الشيء الوحيد الذى يقض عليه مضجعه ويقلقه فقد بلغت الخامسة عشرة من عمرها ، وتفجر جمالها الريان ، عن فتنة طاغية أسرت قلب السيد صاحب المزرعة ·· وكانت المسألة على جانب كبير من التعقيد لاسيما وان الأم كانت تقوم بدور الوسيط بين السيد وابنتها ·

وتقدمت جوزيفا ذات يوم من خوان على غير عادتها ، وهى تكاد تفطر رقة وعذوبة لم يعهدهما فيها من قبل وختمت مداعبتها العاطفية له بقولها لقد وقع السيد فى غرام روزاليندا فلو تدبرنا ترتيب علاقة بينهما ، لوقعنا على منجم من الذهب ·

وتفجر غضب الرجل العجوز وهو يقول ·· يالله العذراء ! لقد سكت على مضض على الولد الذى جئتنى به ·ولكن موضوع روزاليندا ·· شيء آخر لا استطيع ابتلاعه ابدا ! ·

وانهال على زوجته يضربها ضربا مبرحا ، وادمى جسدها بلكماته وركلاته القوية ، ثم خلفها وقد تورمت بعض اجزاء جسدها ، تبكى وتنتحب وهى مطروحة على أرض البيت ·

وتوالت الايام ، وهو لاينفك يضربها بين الفينة والفينة · بينما ظلت تهدده بطردهم جميعا من المزرعة ، اذا لم يذعن لرغبات السيد المشتعلة · لكن خوان ظل على موقفه ، لايتراجع عنه قيد شعرة

وراح يقول لها ذات يوم ·· لن أضحى بابنتى أبدا · واذا كان الشرف يقوم على اشلاء مثل هذا العار فساعود الى الطريق اقطعها ، واسلب الناس ما يملكون !

ثم اضاف الى ذلك قوله ·· هذا هو الخطأ فى تعليم الشرف للناس · لقد سرقت · وكان هذا حقا ، وكنت وغدا وكاذبا ، ومنافقا ، ولن أنكر ذلك ولكننى اقول لك ·· ان كل اثم ارتكبته فى الماضى يقلقنى ، ويحز فى نفسى الألم ولكننى لن ابيع فلذة كبدى ، وكبدك قولى عنى ماشئت ، فانا رجل شرير وسيء ، ولكننى سأحافظ على شرفى وقد تقولين انى بليد ، ولكننى سأظل على هذه البلادة ، وقد انتهى نهاية اسوأ من البداية التى كنت منها · اذهبى عنى يربك · قبل ان اذبحك · وعليك وعلى الفتاة ، والسيد ان تكونوا حذرين ،فان خوان براباس لم يمت ·

وتمتمت جوزيفا ، وهى تمسح عينيها بمريلتها قائلة ·· اجل ، لقد مات ·· لقد مات ياعزيزى ·· لانك تريد ان تصلحنا جميعا · لقدكنت افكر ياخوان منذ عهد بعيد انك تصلح ان تكون جنرالا فقط · اما الآن فاننى ادرك انك تصلح ان تكون قديسا ، أو ملاكا ··· بورك فيك ياخوان·· يا زوجى العزيز·